تقديم

عصام خليفة(*)

صاحب السماحة، أصحاب السعادة، أيها الزميلات والزملاء،

اسمحوا لي أن أحيي الجهود التي تقوم بها الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية على الأصعدة كافة. إن المنشورات والمؤتمرات التي تنظمها والمستوى الجدي لتلك المنشورات والمؤتمرات تسدُّ ثغرة كبيرة في أوضاعنا التربوية، وكم تمنيت من موقعي كأستاذ في الجامعة اللبنانية أن يقوم خبراء هذه المؤسسة بتقييم الجودة في جامعتنا لكي ينعكس ذلك إيجاباً على كل نظامنا التربوي. هذه الهيئة تجمعنا اليوم حول مؤتمر بالغ الأهمية يذكّرنا بقول **بول فلري** إن التاريخ هو الإنتاج الأكثر خطورة والذي هو كيمياء الذكاء. وإذا كان تعلّم وتعليم التاريخ هو محور المؤتمر فهو يذكّرنا بقول **هنري إيرين مارو** إن معرفة خلفيات أحداث الماضي يساهم في تحسين صورة الحاضر ويحرّر الإنسان من ثِقَل ماضيه. من هنا، يبدو التاريخ وكأنه وسيلة تربية وحقل تجارب وآداب لحريتنا. ومن خلال معرفة عميقة بماضي الإنسان، يمكن أن نحسّن تهيئة شبيبة تتطلّع نحو المستقبل. وتعليمُ هذه المادة يساهم في تعميق الحس النقدي عند الطلبة ويَشحذُ ذاكراتهم ويقوّي قدرتهم على الاختبار والتحليل والتنظيم. إن المصاعب التي يواجهها مجتمعنا اللبناني وإلى حد ما أكثر مجتمعاتنا العربية ترتبط بالصراعات الأيديولوجية والانقسامات الطائفية والمذهبية والأطماع الدولية حول هذه المنطقة. إن مشكلة تعليم التاريخ تفتح الأفق على معالجة عدة مشاكل. ما هي المناهج التاريخية التي يجب أن نعلّمها في مدارسنا وجامعاتنا؟ كيف سندرّس تاريخ المناطق اللبنانية وهل سينحصر الاهتمام بالأحداث السياسية أم سيتم الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

(*) أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية.

والدينية والتربوية وغيرها. . . . هل سنهتم أيضاً بالديموغرافيا التاريخية والحضارة المادية؟ ما هي النسب التي يجب إعطاؤها لتاريخ لبنان وتاريخ العرب والتاريخ العالمي؟! كيف نفسّر لطلابنا الأحداث العنفية الطائفية؟! أو العنف الذي حصل في بعض الفترات من تاريخنا أو تاريخ سوانا، وهل إن مردود هذا التفسير يقوّي عندهم عوامل التعصّب، أم يقوّي فيهم حس المواطنة واحترام الآخر؟! كيف يمكن أن نوفّق بين تعليم التاريخ الوطني العام من جهة وتاريخ المناطق والطوائف في تكوينها وتطورّها وتعايشها؟ من جهة أخرى، كيف يمكن من خلال التعليم أن نحقق انتصار الأبعاد العلمية والموضوعية في وعي طلابنا على الأوهام والتعبئة النفسية والتصورات الخاطئة التي توجّه أفكارهم ومعارفهم المشوّهة لتاريخ طوائفهم والطوائف الأخرى في مجتمعنا؟ هل نستطيع في تعليم طلابنا وقائع الحروب والاقتتال أن نبرز كلفة الاستقواء بالخارج؟ ومع أهمية التوقّف عند تمفصل الأسباب الداخلية والإقليمية والدولية لاندلاع تلك الحروب، كم يبدو ملحاً أن ندخل في الإدراك الجماعي لطلابنا، أن اللجوء إلى العنف هو باهظ الكلفة على الجميع والنتائج الناتجة عنه مدمّرة للوطن وللعمران وللإنسان، وعلى العكس من ذلك إن الوحدة الوطنية والحوار والتمسّك بالقيم الكبرى التي اتفق عليها اللبنانيون هي عامل قوة في مواجهة كل الأخطار. كيف نستطيع من خلال تعليم التاريخ أن نعمّق شعور طلابنا بالدفاع عن الدولة اللبنانية من حيث هي إنجاز كافح الأجداد لقيامها لكي تكون حاملة لهويتنا بين الشعوب ونبرز بالوثائق المواثيق الوطنية التي توصل إليها اللبنانيون في المفاصل الكبرى كنمط توافقي في البناء الوطني كعاميّات أجدادنا والدستور عام ١٩٢٦ وميثاق منزل يوسف السودا عام ١٩٣٨ وميثاق ١٩٤٣ واتفاق الطائف وغير ذلك؟ إن تحقيق الوحدة الوطنية لم يتم التوصّل إليه بعملية شكلية مزاجية وقسرية بقدر ما كان نتيجة حتمية لتلاقي المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل اللبنانيين. إن التسويات التي توصل إليها اللبنانيون كانت تشكّل الحد الأدنى المقبول الذي يوفّق بين المصالح لكل مجموعة والمصالح المشتركة للجميع. إلى أي حد في تعليمنا لتاريخنا نستطيع أن نبسّط أساليب الكتب المدرسية بحيث تناسب وعي التلامذة وهل يمكن أن نفكّر بالاعتماد على الوثائق المصوّرة والمكتوبة مبتعدين عن الخلفيات العقائدية محاولين قدر الإمكان جعل الوثائق أكثر التصاقاً بالواقع في معرفة أحداث الماضي؟ كيف يمكن أن نبرهن ترابط الهوية اللبنانية مع العروبة وكيف يمكن أن نبرز دور المسيحيين على امتداد الحقب بالتعاون مع إخوانهم المسلمين في إنجاز النهضة في الفترة الحديثة وفي تقدم الحضارة في الفترات الذهبية في المرحلة العباسية أو في

بلاد الأندلس وكذلك من خلال مطابع بيروت وجبل لبنان؟ وما صدر عنها من كتب ومنشورات؟ وإن كان المعلم أو الأستاذ هو محور العملية التربوية، كيف نؤمن جودة تعليمه في كل الجامعات وبخاصة في جامعتنا اللبنانية. ما هي المختبرات التربوية؟ وما هو غنى المكتبات الموجودة؟ وهل تتوفّر التقنيات الحديثة وما هو مستوى الإداريين والأساتذة الذين تعاقدوا معهم؟ خاصة في المراحل الأخيرة؟ هل ندخلهم في الملاك، هل نعمل بتوصيات اليونسكو التي تدعو إلى تحقيق التقدم في ميادين التعليم العالي والتعمّق العلمي والبحوث التي تعتمد على البنى الأساسية لهذا التعليم وعلى موارده البشرية والمادية وعلى مؤهلات أعضاء هيئات التدريس وعلى صفاتهم الإنسانية والتربوية والتقنية والمدّعمة بالحرية الأكاديمية والمسؤولية المهنية والإدارة الجماعية (مهمة جداً في هذه الأيام) والاستقلال المؤسسي، وماذا عن المجلات العلمية ومراكز الأبحاث التاريخية والمنشورات؟ واستطراداً، هل هناك من يفكّر في تحديث أساليب تعليم التاريخ ومشاركة الطلاب في استيعاب المعرفة وتدريبهم على سبل المعرفة والحشرية العلمية وتخطي أساليب الحفظ والانفتاح على الأساليب التربوية الحديثة كإعداد الملف وتحليل النصوص التاريخية وامتلاك تقنيات الإحصاء والجداول والـ graphics واستعمال الخرائط التاريخية ومخططات المدن والأساليب السمعية والبصرية وغيرها؟ وانطلاقاً من ذلك، إلى أي حد يمكن للمناهج الجديدة ما يسمونها LMD في الظروف المعروفة على الأقل في جامعتنا أن تحقق نقلة إلى الأمام أو تشكّل خطوة تراجعية إلى الوراء. يبقى أن نشير إلى أهمية وجود قرار سياسي لتعزيز مادة التاريخ من خلال تخصيص ساعتين وليس ساعة واحدة في المناهج لهذه المادة والوصول إلى إقرار مناهج لكل السنوات والتوصّل إلى صياغة كتب مدرسية مناسبة ضمن شروط معينة.

أيها الحفل الكريم، في هذا الزمن العربي حيث يُرفع شعار الحرية في مواجهة أنظمة الفساد والاستبداد، نتمنى أن يتوصل هذا المؤتمر إلى النجاح بحيث تستطيع أجيالنا الصاعدة أن تأخذ الدروس من تعلّم تاريخ وطننا لبنان وشعوبنا العربية وأن تساهم في قيام مجتمع المعرفة والعدالة والديمقراطية الحقة وشكراً.